مراجعات الكتب | Book Reviews

صورة إفريقيا في القصص المصورة: ‘تان تان في بلاد الكونغو’[1] نموذجاً

Africa’s Image in Illustrated Stories: ‘Tin Tin in the Congo’ as case study

بلقاسم حرود | Belkacem Harroud [2]

(١) ‘تان تان في بلاد الكونغو’ هو الكتاب الثاني من سلسلة مغامرات تان تان التي كتبها رسام الكاريكاتير البلجيكي جورج ريمي (١٩٠٧م-١٩٨٣م)، والمعروف فنياً باسم إيرجي.

(٢) كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن زهر، أكادير، المغرب.
الإيميل: aboulkacem.harroud@gmail.com

يهدف هذا المقال إلى دراسة كتاب 'تان تان في بلاد الكونغو' في سياق خطاب متعدد الجوانب مكتوب ومرئي يروج للإمبريالية البلجيكية (الأوروبية) في إفريقيا. كما يهدف إلى إبراز الأدوار الأيديولوجية للقصص المصورة إلى جانب أدوارها الفنية والترفيهية. فالقصص المصورة نصوص غنية وشديدة التأثر بالثقافة والتأثير على الصغار والكبار معاً، بحيث لا تمنعها قيمتها الأدبية والترفيهية من أن تكون وسيلة لغرس وعي زائف لدى قرائها وأفكاراً فضفاضة حول الآخر وثقافته.

مقدمة:

لا توجد دون أدنى شك بداية متفق عليها للرسوم المصورة. يعتبر بعض الباحثين أن 'زربية بايو' أو 'منسوجات بايو'، وهو قماش مطرّز يبلغ طوله قرابة ٧٠ مترًا وعرضه ٥٠ سنتمتراً، تم إنتاجه عام ١٠٧٧م، ويصور الفتح النورماندي لإنجلترا الأنجلوساكسونية قبل عشر سنوات، كأصل القصص المصورة. علماء آخرون يعتبرون الكتب المصورة للرسام السويسري ورسام الكاريكاتور رودولف توپفر (١٧٩٩-١٨٤٦) أقدم كاريكاتير، في حين يرى البعض الآخر إما الرسام

الإنجليزي الشهير ورسام الكاريكاتير الساخر ويليام هوغارث (١٦٩٧-١٧٦٤) أو رسام الكاريكاتير البريطاني جورج كروكشانك (١٧٩٢-١٨٧٨) رواد القصص المصورة. لقد شهد القرن التاسع عشر تأسيس القصص المصورة كفن، كما ظهرت الصحف الأسبوعية التي تنشر للجماهير القصص المصورة التي أصبحت منتشرة على نطاق واسع في أوروبا وأمريكا وآسيا ومناطق أخرى وبلغات مختلفة. فقد ظهرت 'المانغا' و'الدوجينتشي' في اليابان، و'الماهوا' و'الويبتونز' في كوريا، كما ظهرت 'المانهوا' في الصين. في الوقت ذاته انتشرت القصص المصورة في فرنسا وبلجيكا وبريطانيا وإيطاليا وإسبانيا ودول أخرى عديدة. هذا بالإضافة إلى انتشارها في المستعمرات في إفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية.

لم تكن القصص المصورة تُنشر إلا في الجرائد اليومية والأسبوعية، لينتبه الناشرون في وقت وجيز إلى ضرورة إعادة تحويل القصص المصورة إلى كتب مصورة لتحقيق ربح أكثر. فظهرت أنواع مختلفة من الكتب المصورة: قصص هزلية رومانسية مثل 'جيسيكا جونز ولوك كيدج' لكاتبه مايكل بينديز، قصص رعب مثل 'أسنان الأطفال' لدوني جيتس، قصص الجريمة مثل 'لا فائدة من وراء الجريمة' لكاتبه تشارلز بيرو، قصص الخيال مثل 'التنانين والزنازين' للكاتب جاري جيجاكس، قصص الإنسان الخارق مثل 'الأربعة الخارقين' لكاتبيه توم دي فالكو وبول راين، على سبيل المثال لا الحصر.

شهدت بداية القرن العشرين المزيد من الطفرات في هذه الصناعة التي اكتسبت شعبية ليس فقط بين الأطفال ولكن بين البالغين أيضًا. لم يشمل هذا التأثير الكتب فحسب، بل شمل التلفزيون والسينما أيضًا. باختصار، سواء ظهرت الكوميديا في وقت مبكر من عام ١٠٧٧م، أو في وقت لاحق من القرن التاسع عشر، فإنه فن لا يزال بحاجة إلى

مزيد من الدراسة، بالنظر إلى أنواع الخطاب المضمنة فيه.

يعرّف ويل آيزنر القصص المصورة على أنها "الترتيب المطبوع للفنون والبالونات بالتسلسل، خاصة في الكتب المصورة"[٣]. ويقول في موضع آخر إن القصص المصورة هي "ترتيب الصور أو الكلمات لسرد قصة أو إضفاء طابع درامي على فكرة ما"[٤]. كما يرى سكوت ماكلاود أن القصص المصورة هي "صور متقابلة وصور أخرى في تسلسل مدروس، تهدف إلى نقل المعلومات أو خلق استجابة جمالية لدى المشاهد"[٥].

لم تكن القصص المصورة كواحدة من الوسائط الأكثر شهرة، مخصصة للتسلية فقط. فلطالما كانت وسيطًا ينشر الأيديولوجيا أو يفضحها. وتناول قصة تان تان في بلاد الكونغو بالدرس والتحليل لا يوضح أن القصص المصورة هي وسيلة من وسائل الدعاية للإمبريالية البلجيكية في الكونغو فحسب، بل يلقي الضوء على كيفية عمل الأيديولوجيا في شتى أنواع الوسائط المرئية والمكتوبة، وكيفية التلاعب بها لاستصدار أحكام حول الآخر وحول ثقافته أيضاً.

١. القصص المصورة والخطاب الأيديولوجي

صحيح أن القصص المصورة ربما فقدت جاذبيتها بسبب انتشار الصناعة التلفزيونية والسينمائية، لكنها تؤدي بالتأكيد دورًا أساسيًّا ليس فقط في تكرار الواقع ولكن في صناعته أيضًا. تتقاطع القصص المصورة كفن دائمًا مع القوى السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية زمن إنتاجها. تقول ميلا بونغو في كتابها 'قراءة القصص المصورة' إن "[القصص المصورة] ينظر إليها على أنها (أ) تشكل أفكار الشعب والأمة و(ب) تتمرد عليها في الآن ذاته. ففي أي وقت، يكون القراء مدركين للعقلية المتسيدة، وبالتالي، يُنظر إلى القصص المصورة على أنها إما متمردة ضد هذه العقلية أو مؤيدة لها"[٦].

لقد أُنجزت كثير من الأبحاث حتى الآن حول القصص المصورة، وركز معظمها على مواضيع متنوعة لكنها لم تركز بالشكل الكافي على الأيديولوجيا. في الواقع، لقد كانت للبحث الأكاديمي دائمًا وجهات نظر مختلفة ومتباينة عن القصص المصورة بشتى أنواعها. كما ركزت كثير من الأبحاث على الأدوات التعليمية والأدبية للقصص المصورة، وخطاباتها وأساليبها، وآليات التواصل فيها، وتأثيرها النفسي على

(3) Will Eisner, Graphic Storytelling (New York and London: Norton, 1996) 6.

(4) Will Eisner, Comics and Sequential Art (New York and London: Norton, 1985) 5.

(5) Scott McCloud, Understanding Comics (Illinois: Perma-Bound Books, 1994) 9.

(6) Mila Bongco, Reading Comics: Language, Culture, and the Concept of the Superhero in Comic Books (London and New York: Routledge, 2013) 26.

الأطفال، وتاريخها ولغتها وقراؤها. لكن علاقة القصص المصورة بالأيديولوجيا ظلت مسألة ملحة على امتداد تاريخها.

قبل إيجاد خيط رابط بين الأيديولوجيا والقصص المصورة، يجب أن ألقي بعض الضوء على مفهوم الأيديولوجيا. فعلى الرغم من استخدامه المتكرر في النقد الأدبي والثقافي، فإن مصطلح الأيديولوجيا كان دائمًا زلقًا ولا يخضع لأي ثبات. وكما يشير تيري إيغلتون، "ليس من المبالغة القول بأن هناك نظريات للأيديولوجيا تقريبًا بعدد المنظرين لها"[٧]. ويضيف أنه "لا أحد لحد الآن توصل إلى تعريف واحد مناسب للأيديولوجيا [...] لأن مصطلح 'أيديولوجيا' له مجموعة كاملة من المعاني المفيدة، ليست كلها متوافقة مع بعضها مع بعض"[٨]. وبالتالي، فالغرض هنا ليس الإحاطة بكل النظريات التي حددت مفهوم الأيديولوجيا. بل سأستخدم بعضها لإيجاد علاقة منطقية بين القصص المصورة والأيديولوجيا.

يعرّف كارل ماركس وفريديريك إنجلز الأيديولوجيا بأنها نظام من الأفكار التي يستقبل الناس من خلالها العالم ويفهمونه. فهما يربطان الأفكار السائدة بالطبقات المتسيدة. فالطبقة المتسيدة في المجتمع هي التي تنتج الأفكار السائدة. لذلك، يجب أن يُفهم -وفقًا لماركس- أن الطبقة المتسيدة تتحكم في إنتاج الأفكار السائدة من أجل ضمان استمراريتها والقضاء على أي شكل من أشكال السيطرة على مصادر الإنتاج. وهذا يشبه إلى حد بعيد فرضية ديفيد هوكس بأن الإيديولوجيا هي "نظام من الأفكار ينشر مغالطات محبوكة من أجل المصلحة الأنانية للقوى الخبيثة التي تسيطر على حقبة معينة"[٩].

لا يمكن فهم الأيديولوجيا بمعزل عن 'فكرة الوعي الزائف' لجيورجي لوكاش. فالوعي الزائف عنده يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالوعي الطبقي. والوعي الطبقي يمكن الطبقات المتسيدة من التعرف على موقعها في المجتمع وتاريخها، ويحتم تطور المجتمع. لكن الوعي الزائف يظهر فشلًا في التعرف على الوضع الاجتماعي، وبالتالي فهو يعيق الثورة والتحول إلى الأفضل.

في أربعينيات القرن الماضي، اعتبرت مدرسة فرانكفورت لعلم الاجتماع أن الثقافة وجدت لتكون آلة للتلاعب بمصائر الناس بالتوافق شبه التام مع الأفكار والمفاهيم الرأسمالية. استمر هذا الطرح بقوة في نظريات عالم الاجتماع الأمريكي هربرت شيلر (١٩١٩م-٢٠٠٠م) الذي اعتقد أن الثقافة والترفيه عمدا إلى تعزيز الفلسفة وأنماط الحياة السائدة. ومن ثم، إذا كانت الأيديولوجيا

(7) Terry Eagleton, ed., Ideology (London: Longman, 1994) 14.

(8) Terry Eagleton, Ideology (London and New York: Verso, 1991) 1.

(9) David Hawkes, Ideology (London: Routledge, 1996) 12.

اختصاراً تعني الأفكار المهيمنة في أي مجتمع، فإن القصص المصورة، تعكس هذه الأفكار أو تناهضها بطريقة أو بأخرى.

في هذا السياق، يمكن القول بكل ثقة بأن القصص المصورة، وهي مرآة للثقافة الشعبية، خطيرة للغاية لما تحمله من أفكار مسبقة للتأثير ليس فقط على الأطفال ولكن على الكبار أيضًا. في كتابه 'فهم الثقافة الشعبية'، يرى جون فيسك أن "الثقافة الشعبية كانت دائمًا جزءاً من علاقات القوة. فهي دائماً تحمل آثار الصراع المستمر بين الهيمنة والتبعية، وبين السلطة ومختلف أشكال المقاومة لها أو التهرب منها"[10]. منذ الأيام الأولى من ثلاثينيات القرن الماضي، أُعتبرت الكتب المصورة نصوصاً مشبوهة وغاية في الخطورة. فقد شكك معظم الناس فيها، واعتبروها إنتاجًا مُهيناً لعموم القراء يخدش براءتهم ويحولهم للجنوح والانحراف. في العصر الذهبي للكتب المصورة بين ثلاثينيات وخمسينيات القرن الماضي، كان الضغط في ذروته من أجل ممارسة الرقابة على محتوياتها. وفي عام ١٩٥٤م، تم إنشاء هيئة قانون القصص المصورة لتنظيم محتواها ليستمر حتى عام ١٩٨٠م. حدد القانون ببساطة ترويج السلوكات الجنسية أو العنيفة أو غير الأخلاقية. وظل هذا القانون إلى أن تم فتح قناة توزيع مباشر عام ١٩٧٠م، مما أدى إلى إلغاء القانون في وقت لاحق.

تجمع القصص المصورة ما بين الكلمات والصور المطبوعة بطريقة فريدة جدًّا، مما يفسح المجال أمام استغلال بارع للمعنى، على الرغم من المساحة الصغيرة المخصصة له. قد تكون صناعة القصص المصورة فضاء خصباً للأيديولوجيا ليس باعتباره فضاء مخصصًا للضحك والهزل فحسب وإنما لشعبيته الجارفة لدى الأطفال والكبار على حد سواء. لقد أصبحت القصص المصورة روتينًا يوميًّا منذ نشأتها كما حظيت بتقدير كبير في أوروبا وأمريكا وآسيا وحتى في المستعمرات. يقول مارتن بيكر: "استحدثت القصص المصورة منذ البداية لتكون نقيضاً لما هو سيئ وخطير، حيث تعهد منتجوها أن تكون أدبًا هزليًّا موجهًا للأطفال على وجه الخصوص. إلا أن أثرها البالغ على الصغار خصوصاً دفع النقاد لاتهامها بالعنف والشناعة والوقاحة والعري والتضليل وغيرها من الأشياء السلبية الأخرى. في الواقع، يكاد يكون من المستحيل العثور على كتاب مصور في بداية ومنتصف القرن العشرين خاليًا من أي عمل عدواني"[11].

ذهب بعض النقاد المتشددين إلى حد ربط القصص المصورة بالانحراف. علاوةً على ذلك، فهي تعرض الأطفال للعديد من أمراض ومشكلات مجتمعاتنا في وقت مبكر جدًّا، مما يجعل الأطفال يشيخون بسرعة كبيرة. أحد هؤلاء النقاد المتشددين الذين

(10) John Fiske, Understanding Popular Culture (London and New York: Routledge, 2004) 19.

(11) Martin Baker, Comics: Ideology, Power, and the Critics (Manchester and New York: Manchester University Press, 1989) 8.

اعتبروا القصص المصورة عنيفة للغاية وخطيرة على كل من الأطفال والبالغين هو الطبيب النفسي الأمريكي فريدريك ويرثام (١٨٩٥م-١٩٨١م) الذي استشهد بتصويرات علنية وسرية للعنف والجنس وتعاطي المخدرات ومشكلات البالغين الأخرى ووصفها بجرائم القصص المصورة. في الواقع، قاد ويرثام حملة دولية ضد القصص المصورة في خمسينيات القرن الماضي. كما تسبب في القضاء على نصف صناعة القصص المصورة بأكملها. ويعتبره الكثيرون أكثر المناوئين للقصص المصورة. يعتبر ويرثام في كتابه 'إغراء الأبرياء' الكتب المصورة أشكالًا سلبية من الأدب الشعبي وسببًا خطيرًا لجنوح الأحداث. وفي أثناء عرض مقابلات مع الأطفال والمراهقين، فهو يسلط ويرثام الضوء على التأثير الرهيب للقصص المصورة على المراهقين والأطفال لأنهم لا يستطيعون التمييز بين ما هو حقيقي وغير حقيقي، وبالتالي يتأثرون بسهولة ويبدو أنهم يأخذون كل شيء في القصص المصورة كأمر مسلم به. كما يتهم الكتب المصورة بتزوير التاريخ، وإدامة الصور النمطية العنصرية، وخلق وعي جماعي حول 'كل جريمة يمكن تخيلها'. إحدى المشكلات الخطيرة الأخرى التي يحذرها ويرثام منها هي الجنس. فعادةً ما يتم تمثيل الأبطال والبطلات كاسيات عاريات وهذا يعرّف الأطفال والمراهقين على موضوع قد لا يرغب الآباء في أن يعرفه أطفالهم مبكراً.

فويرثام يلمح إلى علاقة 'الرجل الوطواط' و'روبن'، متهمًا إياهما بالمثلية الجنسية. كما يحذر من الآثار المحتملة للسحاقية في علاقة 'المرأة الخارقة' مع 'فتيات هوليداي' وشخصية 'القطة السوداء'. "بالنسبة للأطفال، فإن المرأة الخارقة هي صورة للمرأة المخيفة، وبالنسبة للفتيات فهي مثال مثير للاشمئزاز. وفي حين يقف الرجل الوطواط معاديًا للأنوثة، فإن المرأة الخارقة الجذابة ونظراءها هم بالتأكيد معادون الذكورة"[١٢]. وعلى الرغم من أن النقاد اعتبروا أفكار ويرثام متشددة للغاية، فإنه حفر في أدق التفاصيل والكلمات والآثار والجوانب التي تنقل بالفعل الجريمة والجنس والانحراف، والتي قد تفسد حاضر الأطفال والمراهقين ومستقبلهم. قد يؤخذ الكثير من أفكار ويرثام في كتابه 'إغراء الأبرياء' وقد يرد الكثير منها أيضًا، لكنه في الحقيقة تدخل في اللحظة المناسبة لإبراز إلى أي مدى يمكن أن تكون القصص المصورة أيديولوجية.

في الاتجاه ذاته، يسلط جيسون ديتميتر الضوء على دور القصص المصورة في غرس الأفكار الأيديولوجية المتعلقة بالعرق والطبقة والجنس في اللاوعي الجماعي للجماهير. يقول في أحد مقالاته: "كتب قصص الأطفال الخارقة، مثلها مثل كل النصوص المكونة للثقافة الشعبية، تعمل كنصوص سياسية، مشكلة للهويات الجيوسياسية (وهويات أخرى) وبانية

(12) Fredric Wertham, Seduction of the Innocent (New York: Rinehart and Company, 1954) 192-3.

لخيالات جغرافية. ويتم ذلك من خلال اللغة المرئية والمقروءة التي تربط تصورات 'الواقع' كما يفهمها القارئ"[١٣]. ويضيف ديتمير أن "الكتب المصورة، التي يعتبرها الكثيرون مصدراً رئيسياً للترفيه، قد تقدم مع ذلك نظرة ثاقبة عن النظام السياسي المتأصل في الاتجاهات الجديدة في وسائل الإعلام"[١٤].

أسهم أومبرتو إيكو بدوره بشكل كبير في الجدل الدائر حول الأيديولوجيا وعلاقتها الوثيقة بالقصص المصورة. كان منظوره النقدي / الماركسي مؤثراً للغاية في الدراسات اللاحقة عن القصص المصورة. على عكس أولئك الذين اعتبروا الكتب المصورة مجرد كتب مسلية وبريئة قد لا توجه قراءها أو تربكهم بجدية، يضعها إيكو في وسط الدعاية الرأسمالية السياسية. فهو يعتقد أن القصص المصورة تتلاعب بها أفكار رأسمالية متناسقة وفوق متناول القراء. فالقصص المصورة بالنسبة له هي المجالات الخصبة التي يقع فيها استنساخ للأيديولوجيات السائدة في المجتمع. "إن الرسوم المتحركة متحكم فيها من فوق، فهي تعمل وفقًا لجميع آليات الإقناع الخفية، التي تتوقع من المستهلك سلوك الهروب الذي يحفز على الفور التطلعات المهيمنة للمنتجين. [...] تعكس القصص المصورة، في معظم الحالات، التعاليم الخفية لنظام ما وتعمل كتعزيز خفي للأساطير والقيم السائدة"[١٥].

على العموم، وعلى الرغم من أن القصص المصورة مخصصة بشكل أساسي للترفيه، لكن هذا لا يمنعها من أن تكون حبلى بالأفكار النمطية والفضفاضة حول العرق والجنس والطبقات الاجتماعية.

٢. تفاصيل القصة

'تان تان في بلاد الكونغو' هو الكتاب الثاني من سلسلة مغامرات تان تان التي كتبها رسام الكاريكاتير البلجيكي جورج ريمي (١٩٠٧م-١٩٨٣م)، والمعروف فنياً باسم إيرجي. تعتبر السلسلة واحدة من أكثر القصص المصورة شعبية في القرن العشرين. فقد تم نشرها بأكثر من سبعين لغة وبيعت منها أكثر من مائتي مليون نسخة. كما تمت ترجمتها لأعمال سينمائية وإذاعية ومسرحية وتلفزيونية. ظهر كتاب تان تان في بلاد الكونغو لأول مرة في الملحق الأسبوعي المصور للصحيفة البلجيكية الكاثوليكية القرن العشرين، واستمر نشره من مايو ١٩٣٠م إلى يونيو ١٩٣١م.

بعد أن زادت شعبيته بعد مغامراته في كتاب 'تان تان في بلاد السوفيات'، يتجه المراسل البلجيكي تان تان نحو إفريقيا. في الخامس من يونيو ١٩٣٠م أبلغت صحيفة القرن العشرين قراءها أن تان تان وميلو، اللذين

(13) Jason Dittmer, "The Tyranny of the Serial: Popular Geopolitics, the Nation, and Comic Book Discourse", Antipode, Vol. 39, N° 2, 2007: 251.

(14) Jason Dittmer, "The Tyranny of the Serial: Popular Geopolitics, the Nation, and Comic Book Discourse", Antipode, Vol. 39, N° 2, 2007: 265.

(15) Umberto Eco, Apocalypse Postponed (London and Oxford: Bloomsbury Academic, 1994) 37-38.

بالكاد عادا من الاتحاد السوفيتي، سيتجهان نحو الكونغو البلجيكية. وشوهد تان تان وهو يختار ما سيأخذه معه من جناح 'بلاد الكونغو' في السوق الممتاز. في الواقع، كان الكاهن آبي نوربرت واليز (١٨٨٢م-١٩٥٢م) هو الذي أوصى بوظيفة تان تان ودفع به نحو الكونغو. اتصل وزير المستعمرات البلجيكي بالكاهن واليز من أجل اقتراح سلسلة من المقالات والتقارير الإيجابية حول وجود بلجيكا في الكونغو. كان هذا ضروريًّا للغاية بالنسبة للحكومة البلجيكية، حيث شوَّهت فترة الملك ليوبولد الثاني في الكونغو الصورة التي أراد البلجيكيون أن يعرفها العالم عنهم.

سيطر ملك بلجيكا ليوبولد الثاني على الكونغو في نهاية القرن التاسع عشر، وحولها إلى إقطاعية خاصة به. لقد أفقر هذه الأمة، وفتك بسكانها وسرق ثرواتها بمساعدة الصحفي والمستكشف الويلزي هنري مورتون ستانلي (١٨٤١م-١٩٠٤م). عرفت فترة حكمه فظائع شنيعة وموثقة تتعلق بسياسات العمل في جمع ونقل المطاط الطبيعي في الكونغو. فقد فرض على الكونغوليين سياسة العمل الجبري والإكراه البدني لاستخراج المطاط وجمعه بثمن بخس من أجل زيادة أرباح بلجيكا. وكان كل شخص يرفض المشاركة في هذا العمل يقتل فوراً، كما تحدثت التقارير عن قرى دمرت بسبب رفضها. وأفادت تقارير محلية ودولية أيضًا أن أولئك الذين فشلوا في جمع الحصة اليومية من المطاط قد قطعت أيديهم، ما أثار اشمئزازاً دولياً واسعاً. عندئذ بدأت حملة دولية من أجل دولة الكونغو الحرة في عام ١٨٩٠م وبلغت ذروتها بعد عام ١٩٠٠م بقيادة الناشط البريطاني إدموند دين موريل (١٨٧٣م-١٩٢٤م). ونتيجة لذلك، وتحت الضغط الدولي، أجبر البرلمان البلجيكي الملك ليوبولد الثاني على التنازل عن الكونغو للحكومة البلجيكية في عام ١٩٠٨م. لكن ذلك لم يوقف الفظائع البلجيكية في الكونغو.

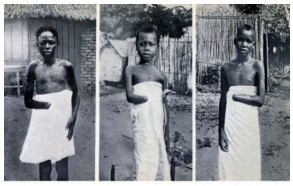

الصورة الأولى: ثلاثة صبيان من الكونغو قطعت أيديهم من طرف القوات العامة التي انشأها الملك ليوبولد الثاني لمراقبة حقول المطاط الطبيعي، لأنهم فشلوا في جمع الكمية المتعارف عليها. (source: rarehistoricalphotos.com)

بعد رحلة قطار من بروكسل إلى أنتويرب في شمال بلجيكا، أبحر تان تان وكلبه ميلو على متن باخرة الثايزڤيل[١٦]، من مدينة أنتويرب إلى مدينة ماتادي، الميناء الرئيس ونقطة الدخول إلى الكونغو للتحقيق في الأحداث الجارية هناك. عندما وصلا، استقبلهما حشد من السكان المحليين بكل حفاوة. وأثناء وجوده في الكونغو، استأجر تان تان صبيًّا كونغوليًّا يدعى كوكو لمساعدته في رحلته خلال تواجده بالبلاد. كانت بلاد الكونجو المستعمرة في حاجة ماسة إلى الإدارة الرشيدة وحسن التدبير، ونظرًا لأن السكان المحليين لم يتلقوا تعليمًا كافيًا، فإن الأشخاص الوحيدين الذين كانوا يسيطرون على البلاد هم المبشرون الكاثوليك

(١٦) الثايزڤيل هي باخرة بنتها شركة في ملكية المقاول ولرجل الأعمال البريطاني جون كوكريل عام ١٩٢٢م لفائدة شركة الملاحة البلجيكية وذلك بمدينة هوبوكن.

والبروتستانت من بلجيكا. حتى الكثير من المدنيين البلجيكيين لم يكونوا مهتمين بتولي أدوار إدارية في الكونغو. كما كان هناك نقص في الأشخاص الراغبين في العمل في وظائف أساسية معينة كالتعليم والطب والجيولوجيا والهندسة المدنية وهندسة الطرق والقناطر والهندسة المعمارية والمناجم وقيادة الشاحنات والعربات وما شابه ذلك. كانت البلاد غنية بمقدراتها المعدنية ولا سيما في منطقة كاتانغا كالنحاس والذهب والألماس واليورانيوم الذي باعته بلجيكا للولايات المتحدة خلال الحرب العالمية الثانية، مما ساعد في بناء أول قنبلتين ذريتين تم إسقاطهما على هيروشيما وناجازاكي في اليابان في أغسطس ١٩٤٥م. وكانت هذه فرصة ذهبية لرجال الأعمال من جميع أنحاء العالم حيث تدفق الأمريكيون والبرتغاليون والتجار الصينيون واليونانيون ومحبو المغامرة والاستكشاف نحو الكونغو، وأصبح الفاسدون من هؤلاء جزءاً من خطة الاحتلال البلجيكي للكونغو. في خضم هذا الاجتياح للبلاد وندرة اليد العاملة، كانت الحكومة البلجيكية تبحث عن طرق ناجعة لإغراء مواطنيها بالوظائف في الكونغو. عندما اقترح الكاهن واليز تان تان كمروّج للمشروع الاستعماري، بدت الفكرة مذهلة للغاية ولكنها كانت مفاجئة لإيرجي الذي وجد نفسه متسائلاً كيف السبيل إلى معرفة المزيد عن الكونغو. فحصل على مساعدة من واليز ومن صديق قديم كان يعمل معه في مجلة الكشاف الصغير حيث زوده بنسخة من كتاب 'مستعمرتنا' لكاتبيه ألبير ميشال ونوربرت لود، الذي ظهرت الطبعة الأولى منه عام ١٩٢٢م. بدأت المعلومات حول بلاد الكونغو تتدفق نحو إيرجي من خلال معارفه، كما قدم له الصحفي مونسينيور شيرجين كتابين ليعينه على معرفة بلاد الكونغو: أولهما 'الكونغو البلجيكية' للكاتب ريني ثوتيي، والثاني كتاب جماعي تحت عنوان 'مرآة الكونغو البلجيكية'. واستعان إيرجي بشركة الملاحة البلجيكية لمده بما يلزم مما تعرفه من خلال رحلاتها البحرية نحو إفريقيا. كما وسعت زياراته المتكررة للمتاحف الإفريقية في بلجيكا خياله حول بلاد الكونغو.

وصلت الدعاية لتان تان في بلاد الكونغو ذروتها. فقد تم تصوير المواطنين المحليين وهم ينتظرون رؤية تان تان بفارغ الصبر. يستشهد الكاتب فيليب جودين بشاب كونغولي يدعى كيولا كونغو وهو يعبر عن سعادته العارمة بسبب وصول تان تان "أنا الفتى الأسود الصغير سعيد للغاية أن الصديق الصغير تان تان بصحة جيدة. كما يسعدني أن أقرأ أن تان تان قادم إلى الكونغو. سيكون لديه الكثير ليأكله هنا. انتهيت. كيولا"[١٧].

يواجه تان تان وميلو المصاعب منذ انطلاق رحلتهما نحو بلاد الكونغو. يصاب ميلو بتسمم على متن الباخرة جراء احتكاكه مع ببغاء، فيعرضه تان تان على الطبيب فيحقنه ويتعافى. ولما يرى ميلو الببغاء مرة أخرى يلاحقه لكنه يسقط من أعلى على رأس أحد المجرمين الذين

(17) Philippe Goddin, Hergé, Lignes de Vie (Brussels: Molinsart, 2007) 23.

كلفهم زعيم العصابات الأمريكي آل كابوني بتصفية تان تان فور علمه من الولايات المتحدة الأمريكية بسفر تان تان إلى بلاد الكونغو. يحاول المجرم ضرب ميلو لكنه يقفز في البحر خوفًا منه. يهب تان تان لإنقاذ ميلو لكن سمكة التوربيد تصعق ميلو فيهوي عميقًا. يغوص تان تان لإنقاذه فيعضه قرش من رجله لكنه يتمكن من إبعاده. في موضع آخر، يهاجم تمساح ميلو حينما كان يسبح في النهر فينقذه تان تان مرة أخرى ويقتل التمساح بكل سهولة. بعد ذلك يلحق بهما المجرم ويأخذ سيارتهما، فتبعه تان تان وضربه بحبة جوز الهند وقلدته القردة فأمطرت المجرم بوابل من جوز الهند حتى خر مغشياً عليه. يواصل تان تان جولته بالغابة فيخطف قرد ميلو، ولم يجد تان تان من وسيلة غير أن يقتل قرداً ويتنكر في جلده ويعيد ميلو. بعد ذلك، يستأجر تان تان سيارة ويستعين بكوكو ليدله على الطريق، وبينما هم يقطعون سكة الحديد يصطدمان بالقطار فيعينوا ركابه على بلوغ وجهتهم النهائية. هناك يؤخذ تان تان على الأكتاف لملاقاة الملك الذي رحب به ودعاه للصيد اليوم الذي يليه. أثناء الصيد، ينقض أسد على تان تان، وفي حين يهم بأكله يقضم ميلو ذيله فيترك تان تان. ينصاع الأسد لتان تان وميلو فيزيد إعجاب السكان بهما، إلا أن ذلك يغضب منجم القرية موغانغا. وعندما دخل تان تان بعد ذلك على رجل يعاني الحمى وزوجته تعتقد أن به مسّاً من الجن، فيعطيه حبات من دواء فيقوم كأن لم يكن به شيء، تخر له الزوجة ساجدة مبجلة معتبرة إياه صانعاً للمعجزات[١٨]. عندئذ يتفق المنجم موغانغا والمجرم أن يكسرا معبود القرية ويتهما تان تان بذلك. ولما وجد القرويون المعبود مكسوراً في خيمة تان تان، غضبوا غضباً شديداً وقرروا سجن تان تان. لكن كوكو ينقذه في جنح الليل، ليكشف مؤامرة المنجم والمجرم لكسر معبود القرية فانقلب القرويون عليهما ورجموهما بالحجارة. يزداد غضب موغانغا من تان تان إثر تحوله لبطل في قرية باباوروم، فينشب حرباً بينهم وبين جيرانهم المهاتوفو. يتفوق تان تان على المهاتوفو ولم يستطع واحد منهم أن يصيب تان تان برمح واحد لأنه كان يخبئ مغناطيساً يلتقط كل رماحهم. نتيجة لذلك، يستسلم الملك باسم قبيلة المهاتوفو لتان تان ويقرر وقف الهجمات والأعمال العدائية ضد الباباوروم. يفكر موغانغا في طريقة أخرى للقضاء على تان تان فيعاود التآمر مع المجرم لقتله ويتنكر كفهد منتظراً قدوم تان تان للغابة. وفي حين هو كذلك يطوقه ثعبان ضخم ويكاد يجهز عليه لولا تدخل تان تان الذي قتل الثعبان وحرره منه. يستسلم موغانغا ويتوسل الغفران وينهي كل مؤامراته. لكن المجرم يواصل ما بدأه ويحاول القبض على تان تان مرة أخرى متنكرًا كمبشر كاثوليكي. ينجح في ذلك ويحاول إلقاء تان تان في النهر لتلتهمه التماسيح لكن تدخل ميلو قلب الموازين فنجا تان تان وسقط المجرم في النهر وأصبح لقمة سائغة للتماسيح. يضع

(١٨) بلغة البانتو صانع المعجزات أز كاسر الصخور هو "البولاماتاري".

تان تان يده على رسالة كانت في جيب المجرم قبل مقتله فيكتشف محاولة رئيس العصابات الأمريكي آل كابوني السيطرة على إنتاج الألماس في إفريقيا. فيساعد الشرطة الاستعمارية على القبض على آل كابوني وبقية عصابة التهريب. ثم تنتهي مهمته فيعود إلى وطنه.

٣. تشويه صورة إفريقيا

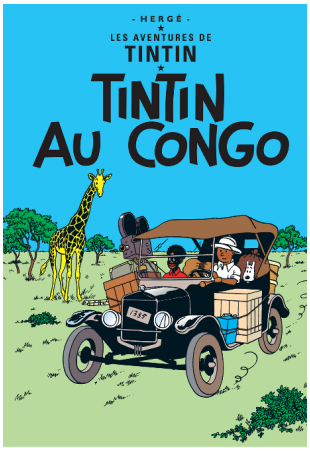

الصورة الثانية: طبعة 1974م من كتاب تان تان

بغض النظر عن مقدار الدعم والانتشار الذي عرفه كتاب 'تان تان في بلاد الكونغو' في أوروبا وأمريكا، فإنه لا يزال نصًا يعزز القوالب النمطية العنصرية الغربية. فهو يصور الأفارقة كمهرجين أغبياء مخادعين، يلبسون جلود الحيوانات ويحملون أسلحة بدائية كالرماح والدروع. حتى القرد الذي يظهر في القصة وهو يحاول اختطاف ميلو يبدو أكثر ذكاء من الأفارقة وأوسع حيلة منهم. فهم بحسب إيرجي ضعفاء للغاية وأسهل على صبي كتان تان للتغلب عليهم دون عناء.

علقت دار النشر البريطانية إيغمونت إثر نشرها للنسخة الإنجليزية من كتاب 'تان تان في بلاد الكونغو' عام ١٩٩١م بقولها: 'إن الشاب هيرجي في تصويره للكونغو البلجيكية إنما يعكس المواقف الاستعمارية في ذلك الوقت... وقد صور الشعب الأفريقي وفقًا للصور النمطية البرجوازية الأبوية عن الفترة...' وهذا في حد ذاته اعتراف بإساءة الكتاب لصورة إفريقيا. كما أعلنت لجنة المساواة البريطانية أن الكتاب هو نموذج 'للتحيز العنصري البغيض'، وأوصت بعدم بيعه في متاجر الكتب البريطانية منذئذ. وبسبب الانتقادات المتكررة، اعترف هيرجي بنفسه بأنه يمثل أفكار ومواقف العصر. وفي رد على الانتقادات قال إنه لا يعرف شيئًا عن الكونغو إلا ما قاله الناس عنها في الثلاثينيات. وتابع قائلًا إنه كان مشهوراً في ذلك الوقت أن السود لم يكونوا ناضجين، وكان من حسن حظهم أن البلجيكيين كانوا هناك لرعايتهم. يؤكد إيرجي أن هذه الصورة كانت هي الروح السائدة في بلجيكا في ذلك الوقت. لمثل هذه الانتقادات أجرى العديد من التغييرات على النص الأصلي لعام ١٩٣١م والنصوص اللاحقة لعام ١٩٣٧م و١٩٤١م و١٩٤٦م.

أول ما ينتقص به إيرجي الشعب الكونغولي هو الطريقة التي يتحدثون بها. فهم غير قادرين على التحدث بلغة أجنبية بالشكل الصحيح. علاوةً على ذلك، فهم بطيئون وغير أكفاء ومتوحشون. من خلال كتاب 'تان تان في بلاد الكونغو'، بالكاد تجد الأفارقة ينطقون بجملة فرنسية صحيحة. لغتهم ركيكة ولكنتهم تثير الضحك

والاستهزاء، والنص مليء بالجمل الفرنسية المشوهة التي تفتقر إلى الأفعال والروابط. علاوةً على ذلك، فالأفارقة بالكاد يتحدثون في القصة، وخاصة كوكو. فهو لم يرفض طلبًا لتان تان. فعادةً ما يكون تان تان هو الذي يتحدث إلى ميلو وكوكو يستمع إليهما ويوافق في النهاية. "الفتى كوكو لا يخبر سيده شيئاً عن بلاد الكونغو، فهو يجيب بنعم لكل ما يقوله ويطلبه تان تان، ولا يُكَلف إلا بالمهام الوضيعة كحراسة السيارة وإعداد الوجبات وحمل المعدات"[19]. حتى الحيوانات مثل ميلو والكلاب الأخرى والببغاوات وغيرها تتحدث لغة أفصح من الأفارقة، وهذه إهانة صارخة للأفارقة جميعهم.

العنف في حوارات تان تان مع الأفارقة هو أمر لافت للانتباه في القصة برمتها. فهو غالبًا ما يهين الأفارقة ولا يتوانى عن إظهار سلطته وتفوقه ومعرفته مقابل ضعفهم وخذلانهم وجهلهم متى سنحت له الفرصة لذلك. في البداية يأمر كوكو بمرافقته خلال رحلته في بلاد الكونغو دون حاجة لمعرفة رأيه في الأمر. وأثناء رحلتهم على متن السيارة تَعلق عجلاتها في سكة الحديد الملتوية، وبدلًا من أن يدهسهم القطار وينهي حياتهم ينقلب بركابه وينحرف عن السكة. وفي حين يبدأ الأفارقة بالصراخ، يوبخهم تان تان ويتهكم على عربتهم وسكة الحديد المهترئة. "اسكتوا! سنصلح عربتكم!" فإذا كانت سيارة صغيرة تتغلب على قاطرة وعرباتها فهذا يسلط الضوء على الصناعة الأوروبية القوية في مقابل الصناعة الإفريقية القديمة المتخلفة. ثم يأمرهم بالبدء في إصلاح القطار. في هذا المشهد يصف إيرجي الأفارقة بالكسل والجهل والتقاعس وهم المعنيون بتعطل قطارهم لأنهم لا يملكون وسيلة نقل أخرى. حتى الكلب ميلو يسخر من كسلهم ويبدو أكثر نشاطًا منهم وأقدر على المساعدة منهم. ينتهي المشهد هذا وتان تان يجر القطار بسيارته نحو المحطة، وهذا ازدراء صريح بخدمة المواصلات في بلاد الكونغو.

واحدة من المفارقات الأكثر شناعة في القصة هو أن تان تان يظهر بوجهين متناقضين تماماً. فهو عديم الرحمة لما يسلخ قرداً ويلبس جلده، ويقتل خمسة عشر ظبياً لعشائه، ويعذب تمساحاً، ويقتل فيلاً ويأخذ أنيابه العاجية، ويفجر وحيد القرن، ويقتل جاموساً رمياً بالحجر. وهو الإنسان الحريص على تحرير بلاد الكونغو من مؤامرات العصابات الأمريكية التي تنوي الاستيلاء على مقدرات البلاد المعدنية. وهذا في الواقع ما هو إلا جانب من نيات الاحتلال البلجيكي على لسان تان تان من أجل إبعاد كل المطامع الأخرى التي تريد اقتسام ثروات بلاد الكونغو مع بلجيكا.

يستهزئ الكتاب بالثقافة الأفريقية

(19) Jean-Marie Apostolidès, The Metamorphoses of Tintin, Or, Tintin for Adults, trans. by Jocelyn Hoy (Stanford: Stanford University Press, 2010) 13.

ويستهزئ بأصحابها. فهو يعرض لطفل أوروبي ذكي نشط شجاع مقابل سكان محليين كسالى أغبياء وجبناء. حتى موغانغا الذي هو أعلمهم وأكثرهم حيلة يتعرض للضرب من قبل هذا الصبي. وهذا ينبئك عن رؤية إيرجي لثقافة الأفارقة، فهي ثقافة في نظره لا تنتج إلا الكسل والغباء والجبن. من خلال بلاد الكونغو، يصور الكتاب إفريقيا على أنها جنة شاسعة ملأى بالفرص وبالموارد غير المحدودة، ولكنها مأهولة بالمتخلفين، ذوي البشرة الداكنة والشفاه الحمراء الغليظة والأنوف المفلطحة والقامات القصيرة والملابس المضحكة. فهم يمكن تمييزهم حتى عندما يرتدون ملابس الأوروبيين بسبب بشرتهم الداكنة وشفاههم الغليظة. معظم الذين يرتدون ملابس أوروبية هم حفاة وأشد قبحاً. بعضهم يرتدي الفراء ويغطي عنقه حتى في الطقس الحار، وبعضهم يلبس ربطة عنق دون قميص. فهم مهما حاولوا الاندماج في نمط الحياة الأوروبي، فإنهم ليسوا باستطاعتهم التحول إلى أوروبيين. فكوكو مثلاً يلبس مثل تان تان تقريبًا لكنه يبقى إفريقيًّا بسحنته الداكنة وشفائه الحمراء الفطحاء ورأسه الأشعث وأقدامه الحافية. على العموم، فالأفارقة في كتاب 'تان تان في بلاد الكونغو' هم مجرد أطفال كسالى خوافون، مشعوذون، عاجزون وسذج.

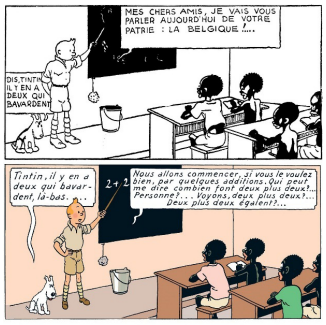

الصورة الثالثة: تان تان يعلم أطفالا من الكونغو التاريخ / الرياضيات (source: (tintin.com

على الرغم من أن إيرجي اضطر إلى اختصار ألبوم الإصدار الأول إلى ٦٢ صفحة بدلاً من ١٠٩ صفحة، بتغيير أو إزالة العديد من التفاصيل لتلبية أجندات معاصرة أو تجنباً للنقد، فإن هذا لا يغير مسار التاريخ. فقد تجنب الإشارة إلى استعمار بلجيكا للكونغو، أو الفظائع التي ارتكبها ليوبولد الثاني هناك. في الألبوم الأول على سبيل المثال، كما هو موضح في الصورة ٣، يريد تان تان أن يغرس في أذهان مجموعة من الطلاب الكونغوليين أن وطنهم هو بلجيكا وليس الكونغو. وهو تزوير واضح للتاريخ ومحاولة لغسل أدمغة النشء الصاعد وحشوها بقيم إمبريالية غاشمة. في طبعات لاحقة، غير إيرجي هذا البيان بآخر أكثر خبثاً وازدراء. فهو يغتنم غياب الأب سيباستيان عن درس الرياضيات بسبب مرضه ويشرع في تدريسهم عمليات الضرب، فيتبين أن هؤلاء الأطفال لا يحسنون حتى أسهل عمليات الجمع. وهذا كله إشارة من إيرجي إلى جهل الأفارقة وغبائهم. "مهمة تان تان الرئيسية هي التعليم. فهو يحذو حذو المبشرين الذين أرادوا تنصير إفريقيا. ودون التشكيك في كفاءته الخاصة، فإنه ينطلق

إلى بلاد الكونغو لينوب عنهم في تأدية واجباتهم الهامة"[٢٠]. يتحمل تان تان وميلو على عاتقيهما تخليص السكان المحليين من المنجم موغانغا، وجلب الفكر العقلاني والتعاليم الدينية إلى الكونغو. بغض النظر عن الطريقة التي حاول بها إيرجي تغيير خطابه، فهو يقع في الفخ ذاته من السخرية من الأفارقة والتلاعب بهم والتقليل من شأنهم. صحيح أن مصطلح 'زنجي' الذي ظهر مرتين في الطبعة الأولى اختفى في طبعات لاحقة، وصحيح أيضًا أن الخطاب السلطوي لتان تان تجاه الأفارقة قد خف، ولكن هذا لا يغير موقف تان تان تجاه ثقافة الأفارقة. فهو لا يزال يعتبر متفوقًا على الأفارقة، يحملونه على أكتافهم، ويركعون له ويبجلونه.

عموماً، فإن الطبعة الأخيرة من كتاب 'تان تان في بلاد الكونغو' (١٩٧٤م) لا تكاد تختلف عن سابقاتها لأنها تعزز النية التوسعية لبلجيكا في الكونغو، وهي تضخم الثنائيات المتناقضة كالنظام ضد الفوضى، والحضارة ضد التوحش، والتنمية ضد التخلف لإضفاء الشرعية على الاحتلال وصياغة ذاكرة جماعية يبدو فيها البلجيكيون (الأوروبيون) متفوقين على الدوام والكونغوليون (الأفارقة) متخلفين على الدوام. "في رحلته نحو بلاد الكونغو، يحمل تان تان معه جميع الصور النمطية لإفريقيا التي ورثها عن ثقافته ويؤكدها في تجربته. وبعيدًا عن التأثر باتصاله بالواقع، يفرض على السكان المحليين وجهة نظره الخاصة، التي يعكسها السكان بطريقة كاريكاتورية إلى حد ما"[٢١].

خاتمة

من خلال كل هذا، يتبين أن كتاب تان تان في بلاد الكونغو ما هو إلا انعكاس للحملة الإمبريالية الأوروبية في بداية القرن العشرين، وأن الكتب المصورة بشكل عام لا يمكن أن تكون وسيلة غنية ومسلية للتعبير فقط، ولكنها نصوص مليئة بالخطاب الاستعماري. فهي دائمًا ما تتأثر بالثقافة، ويمكن أن تكون أيضًا مؤثرة على القراء، كما يمكنها أن تكون وسيلة للدعاية الاستعمارية الصريحة.

البيبليوغرافيا:

Apostolidès, Jean-Marie. The Metamorphoses of Tintin, Or, Tintin for Adults. Trans. Jocelyn Hoy. Stanford: Stanford University Press, 2010.

(20) Jean-Marie Apostolidès, The Metamorphoses of Tintin, Or, Tintin for Adults, trans. by Jocelyn Hoy (Stanford: Stanford University Press, 2010) 14.

(21) Jean-Marie Apostolidès, The Metamorphoses of Tintin, Or, Tintin for Adults, trans. by Jocelyn Hoy (Stanford: Stanford University Press, 2010) 13.

Goddin, Philippe. Hergé, Lignes de Vie. Brussels: Molinsart, 2007.

Hergé. The Adventures of Tintin Reported for "Le Petit Vingtième" in the Congo. Trans. Leslie Longsdale-Cooper and Michael Turner. Brussels: Casterman, 1962.

Hawkes, David. Ideology. London: Routledge, 1996.

McCloud, Scott. Understanding Comics. Illinois: Perma-Bound Books, 1994.

Sabin, Roger. Adult Comics: An Introduction. London and New York: Routledge, 1993.

Sadoul, Numa. Entretiens avec Hergé Tintin et Moi. Brussels: Casterman, 1989.

Schuurman, Ludwig. L'Ultime Album d'Hergé. Maine-et-Loire: Cheminements, 2001.

Wertham, Fredric. Seduction of the Innocent. New York: Rinehart and Company, 1954.

Baker, Martin. Comics: Ideology, Power, and the Critics. Manchester and New York: Manchester University Press, 1989.

Bongco, Mila. Reading Comics: Language, Culture, and the Concept of the Superhero in Comic Books. London and New York: Routledge, 2013.

Dittmer, Jason. "The Tyranny of the Serial: Popular Geopolitics, the Nation, and Comic Book Discourse". Antipode. Vol. 39. N° ,2007 .2 268-247.

Eagleton, Terry. Ed. Ideology. London: Longman, 1994.

—. Ideology. London and New York: Verso, 1991.

Eco, Umberto. Apocalypse Postponed. London and Oxford: Bloomsbury Academic, 1994.

Eisner, Will. Comics and Sequential Art. New York and London: Norton, 1985.

—. Graphic Storytelling. New York and London: Norton, 1996.

Fiske, John. Understanding Popular Culture. London and New York: Routledge, 2004.